

الفصل الثامن

السفر متعة ومصدر للمعرفة

إن السفر في القول المأثور من الشعر العربي:

"تفريخ همّ واكتسابُ معيشةٍ **** وعلمٍ وأدابٍ وصحْبُهُ ماجدٌ"

هذه الفوائد المأثورة الخمس عن السفر والترحال. وقد رفع حكماء آخرون عددها إلى سبع. غير أن

هذه الفوائد بالنسبة لي كثيرة يصعب حسابها، لا سيما وأن الترحال والتنقل كان وما يزال جزءاً لا يتجزأ من حياتي العملية وفي حياتي الشخصية والعائلية على حد سواء.

وكان السفر للمشاركة في الندوات والمؤتمرات أو المهمات بالنسبة لي مصدراً لا ينضب للمعرفة وسبيلاً

لبناء علاقات إنسانية طيبة وفرصة ثمينة للسياحة وللاكتشاف البلدان والشعوب والتعرف على عاداتها ومستويات

معيشتها وعلى تراثها الثقافي والحضاري والاستمتاع بجمالها الطبيعي.

وقد شكل حضورني للمؤتمرات والندوات وورش العمل مصدراً للتنمية المعرفية وفتح لي آفاقاً فسيحة

لتجارب إنسانية وثقافية غنية وأدخل البهجة إلى نفسي. كما أدى السفر والترحال إلى تعزيز علاقاتي برموز عربية

وأجنبية خيرة ووسع دائرة تواصلني مع باحثين وممارسين جادين تقاطع نشاطي مع اهتماماتهم وكانوا خير عون لي فيما قمت به لاحقاً من مبادرات وتعزيز جهود الآخرين.

وقد كانت الفترة بين انتهاء تفرغي الدراسي في جامعة هارفارد في صيف عام 1980 وفترة تعطيل

مشروع دراسات التنمية في جامعة قطر في خريف 1982 من أولى المراحل التي أتيت لي فيها أن أسافر بكثافة متحرراً من قيود الوظيفة الرسمية وضغوط الالتزامات المحلية.

ولذلك رأيت أن أفرد هنا فصلاً انتقالياً أخفف به على القارئ كثافة الفصول السابقة التي ركزت على

النفط والتنمية وأعرض انطباعاتي عن جانب من هذه الرحلات.

8-1 ندوة في طنجة

وربما كان أول الأسفار في تلك الفترة زيارتي لمدينة طنجة في المملكة المغربية تلبية لدعوة تلقيتها من وزير الثقافة آنذاك محمد بن عيسى عن طريق سفير المغرب في قطر محمد الطاهر بناني عضو حزب الاستقلال الذي تعرفت عليه في الدوحة عندما زارنا الأستاذ عبد الكريم غلاب وتشرفت بدعوته إلى مجلسي.

كانت زيارة الأديب الكاتب المناضل عبد الكريم غلاب فرصة أتاحت لي ولأصدقائي أن نستقي المعرفة من مصادرها. وعبد الكريم غلاب هو عضو مؤسس بارز في حزب الاستقلال ورئيس تحرير جريدة العلم الناطقة باسم الحزب، أديب متميز ومصدر لتاريخ المغرب العربي ورمز من رموز النضال الوطني فيه من أجل الاستقلال. وقد شرح الأستاذ غلاب لنا كيف استطاعت القوى الحية في المغرب أن تتخلص من احتلال فرنسا بينما استمر على أراضيها احتلال إسبانيا لسبته ومليلة التي لن يهدأ بال للقوى الوطنية في المغرب حتى تتخلص من ذلك الكابوس البغيض الذي ينتقص من السيادة الوطنية.

قام بتنسيق ندوة طنجة حول بدائل المستقبل العربي الدكتور المهدي المنجرة المفكر العربي المغربي المعني بدراسات المستقبل. وعقدت الندوة تحت رعاية مؤسسات أممية وحضرها الكثير من المفكرين والممارسين العرب المعنيين بمستقبل التنمية. كانت تلك الزيارة في عام 1980 أول زيارة لي إلى المملكة المغربية التي كنت أتطلع لزيارتها بفارغ الصبر.

كانت الندوة كبيرة حاشدة لخبرات عربية في مجال الدراسات المستقبلية والتنمية الشاملة وهي موضوع الساعة آنذاك بالنسبة للعالم عامة وللعرب على وجه الخصوص وهم يواجهون تزايد فرص التنمية والتكامل العربي بفضل تصاعد أسعار النفط كما يواجهون تحديات التجزئة وفشل أنماط التنمية في الدول العربية.

لذلك وجدت في الندوة والصرخة التي أطلقتها بضرورة التفكير في المستقبل والعناية به انسجاما مع ما بدأت أنشط فيه من رؤى مستقبلية من خلال ندوة التنمية في أقطار الجزيرة العربية المنتجة للنفط وخير حافز لي لتوسيع وتعميق اهتماماتي بالتنمية والتكامل الإقليمي والعربي.

وأذكر أن من بين أهم المتحدثين في الندوة إلى جانب الدكتور المهدي منجرة الدكتور إبراهيم سعد الدين عبد الله الخبير العربي المصري في معهد التخطيط العربي في الكويت حيث تعرفت عليه، والذي واصل اهتماماته بمستقبل التنمية بعد ذلك مع صديقه ورفيق دربه المفكر والناشط الدكتور إسماعيل صبري عبد الله في منتدى العالم الثالث بالقاهرة حيث تقاطع نشاطي معهما في أنشطة عدة.

ومن محاسن الصدق أنني التقيت في الندوة بالصديق أحمد عبد الله المنصور وكيل وزارة التخطيط بدولة الإمارات العربية المتحدة وزميل الدراسة الذي شاركته السكن في القاهرة عام 1962. وكان أبو خالد بطبيعته قائدا متمكنا إذا أرخى له زمام القيادة وخبيراً بشؤون المغرب التي زار أجزاء كثيرة منها قبلي. وحتى لا أفسد الفرصة التي سنحت للسياحة على هامش الندوة أسلمت زمام أمرني لأحمد منصور بعد انتهاء الاجتماعات لزيارة معالم المدينة وسواحلها الجميلة وأسواقها الشعبية العريقة وتناول الغداء في مطاعم السمك المتميزة في مدينة ابن بطوطة الذي سميت الكثير من الأماكن والسفن في ميناء طنجة باسمه.

وكنا في المساء أيضا نذهب مع بعض المشاركين في الندوة إلى المطاعم المغربية التقليدية المزينة بالنقوش ومقرنصات الجبس والخشب المشغول والفسيفساء المغربية. وفي تلك المطاعم ذات البهو الواسع والسقف العالي تتمتع بهجة الحياة المغربية الغنية بالفن والموسيقى العربية الأصيلة المعبرة عن وحدة الثقافة العربية، ونتناول ما

لذ وطاب من صحون المطبخ المغربي المتميزة اللذيذة والتي تجمع صحون الحلو مع صحون المالح على مائدة واحدة تقدم لك بذوق رفيع صحنا يليه صحن آخر، فتشعر بوجود تشابه مع موائد الأكل الصيني.
وقد قضينا سويا إجازة جميلة كنت في حاجة إليها وما كان لي أن أتمتع بها لولا أنني سلمت أمري على غير عادتي للصديق أحمد منصور وسلمت القيادة له دون مناقشة مثلما اعتدت أن أتدخل في خياراته وترتيباته أيام الدراسة فأفسد الأمر على نفسي وعليه.

2-8 مدينة لوبيانا بسلوفينيا في يوغسلافيا

في عام 1980 دعيت أيضا إلى مؤتمر عقد في مدينة لوبيانا في سلوفينيا بجمهورية يوغسلافيا آنذاك من قبل مركز المشروعات العامة في الدول النامية International Center for Public Enterprises in Developing Countries، وهو مركز تابع للأمم المتحدة مختص بدراسة المشروعات العامة وإصلاح الإدارة وتدريب الكوادر القيادية العاملة فيها في العالم. وكانت دعوتي إلى ذلك المؤتمر العالمي المهم بترشيح من ليوري جونز مدير مركز المشروعات العامة بجامعة بوسطن في الولايات المتحدة الذي كان أيضا من المدعوين. وحضر المؤتمر دارسون لمعوقات أداء المشروعات العامة وممارسون لإدارتها. وجاءت تلك الزيارة بعد أن انتهيت من مخطوطة كتابي حول "كفاءة أداء المشروعات العامة ودورها في التنمية الاقتصادية في أقطار الجزيرة العربية المنتجة للنفط"، ودفعت به للنشر ضمن سلسلة "عالم المعرفة" في الكويت وبدأت أفكر في ترجمته للغة الإنجليزية.

كما فتحت لي تلك الزيارة مجالا رحبا لاستمرار التواصل مع الدارسين للمشروعات العامة والقائمين على إدارتها. ولذلك طلبت الالتحاق بالمركز كباحث غير متفرغ أقضي بعض شهور الصيف لمواصلة اهتمامي بكفاءة أداء المشروعات العامة ودورها في التنمية. وقد وجدت ترحيبا من المركز بطلبي فقررت أن أعود في الصيف بعد عيد الفطر إلى هناك مع أسرتي لقضاء إجازة عمل أستفيد منها في ترجمة كتابي المنتظر صدوره ضمن سلسلة "عالم المعرفة" كذلك. هذا بالإضافة للاطلاع على ما يقوم به المركز من دراسات وبرامج استشارات للمشروعات العامة وتدريب لكوادرها.

وفي صيف عام 1981 سافرت مع عائلتي للالتحاق بالمركز وأقمنا في فندق هوليدي إن فهو السكن المناسب الوحيد لإقامتنا هناك في ذلك الوقت لعدم وجود شقق مفروشة نسكنها خلال الصيف وذلك على الرغم من صعوبة السكن في فندق لعدة أسابيع خاصة عندما تكون مع عائلتك.

بدأت برنامج قراءة الدراسات والتقارير حول المشروعات العامة التي تزخر بها مكتبة المعهد وأتيحت لي فرصة التعرف على الباحثين والاستشاريين والمدرسين في المركز وأغلبهم من المنتدبين من دول أخرى، يركز اقتصادها على المشروعات العامة. كما صرفت بعض الوقت محاولا ترجمة كتابي حول المشروعات العامة إلى اللغة الإنجليزية ولكنني كالعادة لم اقتنع بترجمتي الشخصية لكتبي ولذلك لم أتم ما بدأت به. فبعد أن قضيت بعض الوقت في الترجمة وجدت نفسي غير قادر عليها وأن من الأسهل لي أن أكتب كتابا جديدا باللغة الإنجليزية من ترجمة كتاب إليها وهذا ما توصلت إليه في جميع ما صدر لي باللغة الإنجليزية أو اللغة العربية فلم أترجم بنفسني كتابا منها قط إلى اللغة الأخرى ولم أسع لدى آخرين لترجمة عمل كتبتة وإنما تركت الأمر لمن يهتم به ويرغب فيه. لذلك قضيت أيام العمل إلى جانب القراءة في اللقاء بالأساتذة والباحثين بالمركز والاستشاريين فيه والاطلاع على مشروعاتهم في البحث والتدريس والتدريب.

تعرفت خلال إقامتنا هناك على تركيب جمهورية يوغسلافيا الاتحادية من مقاطعات تختلف عن بعضها إثنيا ولغويا ومذهبيا أو دينيا ويشعر كل منها أنه يستحق أن يعيش في جمهورية خاصة به مثل بقية الشعوب الأوروبية لو ترك له الخيار ربما باستثناء الصرب المكون الرئيسي لجمهورية يوغسلافيا ومقر عاصمتها هذا على الرغم من أن الرئيس تيتو مؤسس يوغسلافيا وأحد رموز حركة عدم الانحياز مع جمال عبد الناصر وجواهر لال نهرو، كان من أصل كرواتي. وقد سمعت أن قطاعات الجيش التي تخدم في كل مقاطعة، يتكون معظم المنتسبين إليها إن لم يكن كلهم من شعوب مقاطعات أخرى لضمان عدم قيام انقلاب في إحدى مقاطعات يوغسلافيا ضد المركز في بيوغراد. كما لاحظت كثرة الكنائس الكاثوليكية بشكل مبالغ فيه في مقاطعة سلوفينا والحرص على مظهر بناءها الفاخر المتميز الظاهر للعيان بما لا يتناسب مع الموارد المالية للشعب السلافي في يوغسلافيا. فالكنائس تضاء في الليل ويحيط بكل منها فضاء وحدائق يتجمع فيها الناس ربما لأنها الفضاء الاجتماعي الوحيد المتاح للشعب السلافي الكاثوليكي الذي يشعر بانتمائه إلى أوروبا الغربية أكثر من انتمائه ليوغسلافيا. وأظن أن تمويل تلك الكنائس يأتي من مؤسسات كاثوليكية في المعسكر الغربي. ولعل تلك الرغبة في التركيز على إظهار الهوية المختلفة لكل من شعوب جمهورية يوغسلافيا الاتحادية إلى جانب غياب الديمقراطية فيها كانت هي البذرة التي قادت إلى الحروب الأهلية في يوغسلافيا قبل تفككها إلى جمهوريات وفقا لاعتبارات أثنية ولغوية ودينية ومذهبية لكل شعب فيها.

استفدت أيضا من المدة التي قضيتها هناك مع عائلتي في السياحة وقضاء إجازة ممتعة في نهاية كل أسبوع. فكنا نذهب لمدة ثلاثة أيام على الأقل في نهاية الأسبوع لزيارة جهة من الجهات السياحية القريبة من مدينة لوبيانا بمقاطعة سلوفينيا. فقضينا إجازات نهاية الأسبوع في مدن ساحلية على بحر الأدرياتيك المقابل للساحل الايطالي وزرنا منتجع سيبينيك **Sibenik** السياحي في كرواتيا وتنزهنا في قرى أخرى على ساحل الأدرياتيك منها ميناء تيران حيث ذقت أذ سمك مشوي هناك وكنت مشتاقا إلي أكله لندرة تقديم الأسماك في مطاعم مدينة لوبيانا. وفي مرة من المرات قررنا أن نزور بودابست عاصمة هنغاريا بعد أن علمنا أنه لا حاجة لنا إلى تأشيرة دخول. وفي إجازة نهاية الأسبوع استأجرنا سيارة أحد الإخوة العرب الفلسطينيين المقيمين هناك ليوصلنا إلى بودابست لقضاء مدة أسبوع. وفي صباح باكر من يوم جمعة في شهر أغسطس غادرنا لوبيانا عن طريق زغرب في كرواتيا إلى الحدود المجرية. وبعد استراحة في زغرب والتجوال بعض الوقت في المدينة واصلنا سفرا إلى المجر. وكانت المفاجأة أن مركز الحدود الصربي سمح لنا جميعا بالدخول فيما عدا أم خليفة التي اعترضوا على دخولها لأن جواز سفرها القطري لا يحمل صورة لها كما هي العادة في جوازات سفر السيدات القطريات آنذاك. ولذلك احتج المركز الحدودي الصربي بأنهم لا يمكنهم التأكد من أنها صاحبة جواز السفر الذي تحمله. وكان القرار مفاجأة غير سارة لنا لم يسبق أن واجهتنا في أوروبا التي زرنا العديد من دولها ولم يعترض أي منها على عدم احتواء الجواز القطري صورة للسيدات القطريات بسبب التقاليد القطرية آنذاك. وبالطبع لم يكن أمنا ألا أن نعود أدرagna من حيث أتينا. وفي طريق العودة وبعد أن هدأنا بعض الشيء تساءلنا لماذا نعود إلى لوبيانا وليس لدينا حجز في الفندق هناك قبل أسبوع؟ وبدأنا نسأل مرافقتنا أن كان هناك مكان يستحق أن نقصده لقضاء أسبوع الإجازة التي قررنا القيام بها. فأفاد مرافقتنا أن هناك عدة أماكن سياحية أخذ يسميها حتى ذكر لنا وجود بحيرة قريبة منا اسمها بليد **Bled** في مقاطعة سلوفينا قريبة من الحدود النمساوية. فطلبنا منه أن يأخذنا إلى هناك بدلا من أن نعود كسيربي خاطر. ووصلنا بليد فوجدناها قطعة من الجنة شاء القدر أن نحتاج للذهاب إليها قبل أن نسمع باسمها.

وجدنا بحيرة رائعة الجمال هادئة ترى شواطئها على مد النظر أين ما وجهت بصرك تتوسطها جزيرة صغيرة مأهولة ذات أشجار باسقة شيدت في القلب منها كنيسة شاهقة الأبراج. كما تحيط بالبحيرة سلاسل من الجبال مشهور بعضها بمنتجات التزلج في الشتاء ويرتادها السياح في الصيف للتمتع بالرؤية البانورامية والهواء العليل. وعلى سواحل البحيرة لاسيما الشاطئ الجنوبي على ما أذكر يوجد عدد من الفنادق الصغيرة وبيوت الاصطياف. فاتجهنا إليها وحجزنا مكانا للإقامة ومن ثم ذهبنا إلى شاطئ الجزيرة للتمتع بساعة الغروب الرائعة ومشاهدة ضوء الشمس وهو يخفت عبر شاطئ البحيرة الهادئ الحالم. وبعد الغروب عدنا للفندق لتناول العشاء والخلود للنوم بعد عناء يوم طويل شهد ما اعترض خطتنا من صمود الصرب وغلظة شرطة الحدود الذين عاملونا بجلافة تحمل في صميمها عدم ترحيب بالعرب الذين يقيم بعضهم هناك ضيوفا ثقلا على حساب الحكومة ولكن على مضض من الشعب.

3-8 النرويج تسعى لنعمة النفط وتجنب لعنته

في عام 1981 دعنتني إلى ورشة عمل في لندن مجموعة باحثين نرويجيين مكلفين من البرلمان النرويجي بدراسة الخيارات المتاحة للنرويج بهدف الاستفادة من النفط وعائداته دون تأثير سلبي على تنافسية الاقتصاد النرويجي وإنتاجية عمل النرويجيين نتيجة احتمال سوء توجيه عائدات النفط لدعم الاستهلاك العام والخاص الجاري. وقد اتصل فريق البحث بي عندما كنت زميلا باحثا في جامعة هارفارد بعد أن اطلعوا على كتابي الصادر باللغة الإنجليزية بعنوان "نمط تخصيص عائدات النفط في إمارات الخليج وانعكاساته على التنمية" سافرت إلى لندن. وعندما وصلت إلى فندق سلفريجز Selfridges في شارع أكسفورد في قلب مدينة لندن حيث عقد الاجتماع وكانت إقامتنا فيه، وجدت أمامي زميلي في جامعة هارفارد توم ستوفر الذي كنت على صلة وثيقة به كما سبقت الإشارة. كما وجدت عددا قليلا من الباحثين المدعويين إضافة إلى فريق الباحثين النرويجيين المكلفين بالدراسة.

كان النرويجيون يسعون للحصول على نعمة النفط وتجنب لعنته من خلال استثمار عائدات البترول بدل تبذيرها كما هو الحال في أغلب الدول الأعضاء في الأوبك إن لم يكن كلها في أغلب الأحيان، وذلك من أجل عزل الآثار السلبية لإنفاق عائدات النفط على الاقتصاد الإنتاجي للنرويج.

كان النرويجيون يخشون تأثير أنفاق عائدات النفط على نمط حياتهم الرشيدة وإنتاجية المؤسسات والإفراد في النرويج إذا حولت عائدات النفط إلى ميزانية الدولة ووجه جزء منها تحت ضغط سياسات شعبية لدعم مصروفات الميزانية العامة من أجل الاستهلاك. فكانوا لذلك يبحثون عن حل يعزل عائدات النفط عن بقية الإيرادات العامة ويوفر أداة عامة لاستثمارها في أصول إنتاجية مدرة للدخل تحتفظ لمخزونات قيمة الثروة النفطية التي يتم استنزافها بقوتها الشرائية المستقبلية لصالح الجيل الراهن والأجيال المتعاقبة.

وفي هذا الصدد كان النرويجيون يسعون لمعرفة ماهية صندوق الأجيال القادمة الذي قررت حكومة الكويت توجيه نسبة من عائدات النفط لاستثمارها من خلاله لصالح الأجيال القادمة. كما كانوا حريصين على التعرف على نمط تخصيص عائدات النفط في الخليج وما أدت إليه من خلل إنتاجي واقتصادي من أجل تجنب النرويج للسياسات المؤدية لذلك.

وقد كانت رسالتي للدكتوراه والكتاب المنشور لي باللغة الإنجليزية حولها من بين المصادر التي ناقشت بإسهاب تجربة إمارات الخليج العربي. وقد أبدوا اهتماما خاصا بما توصلت إليه من نتائج وتوصيات. وكم تمنيت لو أن

دول الخليج اهتمت بدراساتي مثلما اهتم بها النرويجيون بفضل نظام حكمهم الديمقراطي بدل أن تتسابق دول الخليج لمنع دخول كتابي إليها.

سعدت بمشاركتي في ذلك الاجتماع المسؤول الذي إن دل على شيء فإنما يدل على العقلانية ومراعاة المصلحة العامة عند اتخاذ القرارات وتحديد الخيارات العامة في نظم الحكم الديمقراطية، التي تركز إلى المنهج العقلاني وتراعي اعتبارات المصلحة العامة عند تحديد الخيارات واتخاذ القرارات العامة. وتمنيت لو أن مثل هذه الدراسة تجري بالنسبة لنا في الخليج وبقية الدول العربية المصدرة للنفط لتدارك أخطاء الماضي والبدء في إصلاحها تدريجيا حتى نصل إلى وضع إنتاجي واقتصادي يجعلنا نستثمر تدريجيا جزءا متزايدا من عائدات النفط لصالح الجيل الراهن والأجيال المتعاقبة بدل استهلاكها. وهذا ما حاولت أن أقترحه بالفعل عندما كلفت عام 1983 من قبل فريق العمل الذي عهدت إليه الأمانة العامة لمجلس التعاون بوضع استراتيجية للتنمية تعمل في إطارها خطط التنمية في المنطقة. لكن جهودنا مع الأسف ذهبت أدراج الرياح بسبب طبيعة الحكم الفردي المطلق واحتكار حق تحديد الخيارات واتخاذ القرارات العامة في دول الخليج العربية. وذلك ما سأتناوله في فصل لاحق حول مشروع الاستراتيجية البديلة للتنمية الشاملة في أقطار مجلس التعاون التي رفض وزراء التخطيط في مجلس التعاون مجرد النظر فيها عندما وجدوا أنها تتطلب إصلاحات اقتصادية واجتماعية وسياسية هذا على الرغم من أنهم هم الذين طلبوا وضعها لكي تعمل خطط المجلس في إطارها.

4-8 طلب العلم بأحوال الصين

في خريف عام 1981 سافرت إلى الصين تلبية لدعوة كريمة من جائزة أغا خان للعمارة الإسلامية التي تتخذ من سويسرا مقرا لها وذلك لحضور ندوة عن العمارة الإسلامية والمشاركة في جولة للاطلاع على الإسكان الشعبي في الصين.

سافرت إلى بكين عن طريق هونغ كونغ يوم 17 أكتوبر 1981. وفي مطار هونغ في الطريق لصعود الطائرة بشرني أحد الركاب الأوروبيين المسافرين على نفس الطائرة بعد أن عرف أنني من قطر بفوز فريق الشباب القطري لكرة القدم بالمركز الثاني في بطولة عالمية في استراليا بعد أن تغلب على فرق عالمية منها البرازيل وبريطانيا. أسعدني الخبر وفرحت به وفخرت بوطني وشبابه من القطريين الذين كانوا يشكلون الفريق آنذاك. وكانت تلك بشرى خير في مطلع زيارتي للصين فتحت لي المجال للحديث مع بعض الركاب عن قطر التي كانت بالكاد تعرف في ذلك الوقت خارج نطاقها الإقليمي.

وصلنا مطار بكين في المساء حيث كان في استقبالنا ممثلون عن جائزة أغا خان للعمارة الإسلامية وفريق العلاقات العامة من الجهة المستضيفة للندوة. كان مطار بكين متواضعا آنذاك مثل سائر مطارات الدول الفقيرة

في العالم الثالث لا يعبر في مظهره ولا في حركته عن مطار دولة كبرى بحجم الصين ومكانتها الدولية وكونها الدولة الأكثر سكانا في العالم حيث تجاوز عدد سكانها آنذاك المليار نسمة.

وبعد إجراءات بسيطة أخذني موظف من العلاقات العامة للفندق الذي وصلنا إليه بسرعة لقلعة عدد السيارات في شوارع بكين على غير عادة المدن الكبرى في العالم حيث كان يعتمد أغلب السكان في الصين على الدراجات الهوائية. كما لم تكن بكين سوى واحدة من مئات المدن الصينية وربما لم تكن أكبرها بالضرورة فسكان الصين منتشرون في أرجاءها وكان معظمهم في ذلك الوقت يعمل في الزراعة ويقوم في الأرياف.

كان الفندق الذي وصلنا إليه حوالي التاسعة مساء مجمعا يتكون من عدة مبان ذات ثلاثة طوابق متجاورة بالإضافة لقاعة استقبال ومطعم كبير واحد يفتح للوجبات في ساعات محددة. أما الشاي فإنه متوفر في كل حجرة حيث يجد النزيل ماء ساخنا في دله حرارية وبجانبها علبة شاي الياسمين اللذيذ الطعم الزكي الرائحة الذي يشربونه في الصين في العادة دون إضافة السكر إليه.

كان وصولنا الفندق بعد انتهاء وقت وجبة العشاء ولا سبيل لي للحصول على عشاء في الفندق أو خارجه فكان عليّ النوم على معدة خاوية بعد أن شربت كثيرا من شاي الياسمين في أول ليالي زيارتي للصين وأنا أحلم بالفطور. فقد كان الفندق بمثابة ثكنة عسكرية معزولة عن الخارج يقيم فيها ضيوف الدولة يخرجون إلى أماكن مقرر مسبقا ويعودون للفندق بصحبة مرافقين رسميين.

في صباح اليوم الثاني أسرع جئنا لتناول الفطور خشية أن يفوتني، ثم ذهبت إلى مقر انعقاد ندوة العمارة الإسلامية مع سائر المشاركين فيها بالحافلات. وصلت لمكان الندوة قبل افتتاحها وحضرت أعمالها وبدأت أتعرف على المشاركين الذين لم أكن اعرف شخصا أي واحد منهم قبل ذلك وربما لم اسمع بأسماء الأغلبية العظمى منهم لاختلاف التخصصات والاهتمامات لأن أغلبهم مهندسون معماريون وشخصيات عامة في مجال العمارة والتراث الإسلامي.

حصلت على إشارة الندوة باسمي واستلمت البرنامج الذي يستمر على مدى يومين يليهما يومان آخران لزيارة معالم بكين وسور الصين العظيم ويوم حر للتسوق قضيناه في متجر الصداقة Friendship Store الشهير آنذاك، وهو وجهة تسوق الأجانب في بكين المليء بالبضائع الصينية مثل السجاد الصيني والحريز والمنتجات التقليدية حيث يمكنك أيضا ترتب شحن ما تشتريه بعد التأمين عليه لدى شركة تابعة للمتجر. وكانت تلك الزيارة لمتجر الصداقة فرصة لي لشراء سجاد صيني لبيتي الجديد ومجلس الوالد وتحف وهدايا للعائلة والقيام بشحنها إلى قطر من خلال المتجر.

حضرت جلسات الندوة التي كانت تعقد باللغة الإنجليزية وتمتعت بموضوعاتها الجديدة بالنسبة لي وتعرفت من خلالها على أهمية العمارة الإسلامية والجهود المبذولة للمحافظة على طابعها المتميز. كما تعرفت على أهداف جائزة أغا خان للعمارة الإسلامية والمباني الفائزة بتلك الجائزة وهي كثيرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي وخارجه.

وحسب ما أذكر فقد شدتني في اليوم الأول للندوة محاضرة إسماعيل سراج الدين من البنك الدولي (وهو المدير الحالي لمكتبة الإسكندرية بمصر). وذلك لتناول محاضراته موضوع العمارة في اليمن وشرحه المسهب لطريقة بنائها وأساليب صيانتها تقليديا من خلال حرفيين يمينيين اكتسبوا المهنة أبا عن جد.

كما تعرفت من خلال شرائح مؤثرة عرضها إسماعيل على حالة المدرجات الزراعية الحزينة في جبال اليمن حيث بدأت مساحة الزراعة التقليدية على المدرجات بالانكماش تاركة الجبال الشاهقة جرداء نتيجة هجرة الرجال اليمنيين الكثيفة للعمل في المملكة العربية وتخلي من تبقى من العائلة عن زراعة المدرجات لضعف العائد الاقتصادي في وقت قامت فيه تحويلات العاملين في الخارج بسد حاجة من تبقى من أفراد عائلاتهم بما يغنيهم عن قيام النساء والاطفال بزراعتها. ومن المؤسف أن يجري ذلك في نفس الوقت الذي يحتفظ فيه العاملون في الخارج بالأراضي الزراعية بل يشترتون المزيد منها لأسباب اجتماعية دون أن يعتنوا بالمدرجات مما يؤدي إلى انهيار حواجز المدرجات الترابية. ويكون من نتائج ذلك تعري التربة الزراعية التي تم جمعها في أعلى سفوح الجبال بمشقة عبر عصور حضارات سادت ثم بادت في الماضي البعيد لليمن السعيد عندما كان للحكمة اليمنية قيمة ومجال يحقق التعايش السلمي للسكان ويعزز تعاونهم.

وقد نظمت الجهات المضيفة رحلات سياحية للمشاركين في الندوة على مدى اليومين التاليين لزيارة معالم بكين أذكر منها زيارة لسور الصين العظيم. وقد تبين لي أن السور ليس مجرد سور كما يشير اسمه وإنما هو شارع واسع مبني على ارتفاع حوالي عشرة أمتار عن التلال التي يقع عليها، له جدران على جانبيه تسير عليه العربات وجحافل الجند بالإضافة لوظيفته في عزل داخل الصين عما يحيط بها من مناطق وشعوب أخرى. فهو بمثابة درع لحماية الحدود الشمالية من الغزاة، يمتد على طول الحدود الشمالية والشمالية الغربية للصين. يرتفع بناء السور عن الأرض أكثر من عشرة أمتار وهو مطرز بأبراج حراسة ومراقبة وإنذار مبكر من شرق الصين إلى غربها عن طريق إشعال النار في أعالي الأبراج على امتداد السور لأكثر من 6000 ألف كيلومتر. ويقوم كل برج بتبنيه البرج الذي يليه من خلال الشعلة في الليل والدخان طوال النهار بوجود خطر غزو داهم على الصين يجب الاستعداد لمواجهته.

كان بناء هذا السور العظيم مشروع أمة وحضارة صينية عبر قرون شاركت في تشييده سلالات إمبراطورية مختلفة حكمت الصين منذ القرن الرابع قبل الميلاد واستمر بناء كل جزء منه عشرات السنين واستغرق بلوغه المسافة الراهنة المعروفة اليوم عبر قرون من الزمن الأمر الذي حفظ للأمة الصينية وحدة لغتها وثقافتها وعزز انتماء شعبها لقومية واحدة جامعة تشمل 95% من سكان الصين وتتكلم لغة واحدة بلهجات مفهومة لدى الجميع. وبالتالي لم يسمح الصينيون لأي غاز أو طامع أن يستقر في الصين أو يمزق نسيجها الوطني ويقطع أوصال وحدتها الجغرافية المتصلة. ولذلك فإن سور الصين العظيم هو البناء الوحيد الذي شاهده رواد الفضاء من القمر عندما وصلوا إليه. وكانت دهشتي كبيرة بما رأيت من قطاعات السور وازدادت سعادتي عندما خطوت بقدمي على هذا المعلم البشري العظيم ورأت عيناى الجبال والسهول على جانبي سور الصين العظيم الذي يعتبر بحق إحدى عجائب الدنيا السبع. ولذلك لم يفتني فيما بعد أن أخذ عائلتي لزيارة سور الصين ومعالم حضارتها العظيمة أكثر من مرة، وما زال ابني جاسم يطالبني بزيارة الصين للمرة الرابعة ومشاهدة سورها العظيم وبقية معالمها أسوة بأخوته.

كذلك قمنا بزيارة معالم خارج بكين منها مدافن السلالات الإمبراطورية التي وحدت كل سلالة منها الصين بعد اضطراب طارئ استمرت بعض فتراته أكثر من مائة عام. كما زرنا معالم أخرى داخل المدينة منها مسجد بكين التاريخي الذي بني منذ أكثر من سبعة قرون والحي الإسلامي المحيط بالمسجد الجامع حيث تكون المواد الغذائية في متاجره خالية من لحم الخنزير وشحمه ومن الدهون الحيوانية التي تخلط به وكذلك المأكولات التي تدخل فيها هذه

الدهون. وهناك عرفت لأول مرة معنى محلات الحلوى الإسلامية التي تضمن أن الدهون التي صنعت بها الحلويات خالية من شحم الخنزير.

وزرنا أيضا ميدان تيانانمن Tiananmen والمدينة المحرمة احدى معالم مدينة بكين التاريخية حيث يقع القصر الذي كان مقرا لأباطرة أسرتي مينغ وتشينغ واستمر بناؤه 14 عام ويحتوي القصر على مليون تحفة فنية نادرة. وقد أصبح متحفا شاملا يضم الفنون المعمارية القديمة والآثار الإمبراطورية وصنفته منظمة اليونسكو ضمن التراث الثقافي العالمي.

كما زرنا القصر الصيفي الإمبراطوري المحاط ببحيرات كبيرة من أجل ترطيب الجو في صيف بكين الحار والجاف للإمبراطور وحاشيته. ومن ضمن الأماكن التي زرناها وكانت لي قصة فيها هي المعبد البوذي الكبير الذي تحيط به سوق مكتظة ببائعي الأكل الصيني الشعبي وبعض المعروضات. وفي هذا السوق الذي زرناه بعد الظهر ضيقت الجماعة التي كنت معها ولم أعرف كيف أتواصل مع الفندق الذي نسكن فيه لعدم وجود من يستطيع الحديث باللغة الإنجليزية ولا العربية بالطبع في ذلك المكان. كما لم تكن هناك سيارات أجرة أو مركز حكومي واضح يمكنني الذهاب إليه. وقد مكثت تائها هناك عدة ساعات حتى استطعت أن أجد من يساعدني على العودة إلى الفندق مع غروب الشمس وقبل انتهاء وقت العشاء المحدد كما سبقت الإشارة والنوم على معدة خاوية.

ومن الأمور التي أدهشتني خلال هذه الزيارة الولايم الرسمية التي أقامتها كل مساء الحكومة الصينية والجهات المستضيفة أو مؤسسة جائزة الأغا خان للعمارة الإسلامية أيضا. وكانت ولائم حاشده يحضرها العشرات وتتكون قائمة الطعام فيها من حوالي 25 نوعا من المأكولات اللذيذة. فكلما انتهينا من طبق جاء ما هو أشهى منه. وفي المرات الأولى شبعنا من الأطباق الأولى وفوجئت أن الأطباق التالية أذ وأشهى ولذلك احتطت في المرات التالية وحسبت الحساب لما سيأتي من أطباق صينية لذيذة تقدم بأسلوب راق ومحترم لم أكن أتوقع وجوده في الصين الفقيرة التي لا يعبر مظهرها آنذاك عن هذا الغنى الثقافي والرفاهية. وقد استمر تمتعنا بمثل هذه الولايم التي لم أر في حياتي أشهى منها ولا أرقى من تقديمها في معظم الأمسيات التي قضيناها في الصين داخل بكين وخارجها لما يزيد على نصف شهر.

بعد خمسة أيام قضيناها في بكين رجع من المشاركين من هو على عجل وكان مجيئه لحضور الندوة فقط بينما شارك معظمهم في الجولة التي تلت الندوة باتجاه شمال وغرب الصين وصولا إلى مدينة كاشغر عاصمة مقاطعة [شينغيانغ](#) وهي كلمة صينية تعني 'المستعمرة الجديدة'، وتقطنها أغلبية مسلمة من أقلية الأويغور ذات الأصول التركية. كان عدد من تبقى من المجموعة للمشاركة في الجولة يناهز أربعين مشاركا ومشاركة من أكاديميين مختصين في العمارة الإسلامية في كبرى جامعات العالم. وأذكر من المشاركين العرب حسن فتحي المهندس المعماري الشهير في مجال الإسكان الشعبي في مصر وإسماعيل سراج الدين وشقيقته الدكتورة منى من مصر والمهندس المعماري العراقي الشهير محمد مكية وزوجته الإنجليزية الفاضلة وهو المهندس الذي صمم جامعي أبو بكر وعمر في قطر ومهندس سوداني اسمه كمال يعمل في اليونسكو مهتم بالإسكان الشعبي في أفريقيا وحفيد شكري القوتلي رئيس جمهورية سوريا الأسبق قبل الوحدة مع مصر والذي كان يقدم دراسات عليا حول العمارة الإسلامية في إحدى جامعات الولايات المتحدة.

وبالإضافة للمشاركين العرب كان هناك مشاركون من الأساتذة الصينيين في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا MIT بالولايات المتحدة بالإضافة إلى أساتذة مختصين في العمارة من مختلف أنحاء العالم. وكان أغلبهم

على علاقة بجائزة أغا خان للعمارة الإسلامية التي حضر منها وفد رفيع المستوى على رأسه الأغا خان كريم نفسه وعدد من ممثلي الجائزة في مختلف أنحاء العالم وآخرون من أفراد الطائفة الإسماعيلية الكريمة من عدة دول في العالم. والإسماعيليون يمثلون شعبا واحدا وبنية ثقافية وقيادة دينية سياسية دون وجود إقليم يضم دولتهم. وربما كان الهدف الدبلوماسي لزيارة الأغا خان هذه للصين وعقد الندوة والقيام بالجولة هو تنمية العلاقات الإسماعيلية مع الصين التي يقيم على أطرافها في جبال الهونز أو في أطراف الصين نفسها إلى جانب بعض جمهوريات الاتحاد السوفيتي آنذاك جاليات إسماعيلية يرغب الأغا خان التواصل معها ورعاية مصالحها. ولذلك كانت حفاوة حكومة الصين بالندوة وبالجولة ملحوظة أينما حلت المجموعة في مختلف المناطق التي زرناها.

بدأنا جولتنا بزيارة مدينة شيان Xian مركز مقاطعة شانخي Shaanxi في غرب الصين المحاطة **بنهر جينوى ونهر تشينغ شان** وهي واحدة من سبع عواصم تاريخية قديمة في الصين. كانت المدينة في الماضي تمثل المحطة الأولى على **طريق الحرير** وبذلك أصبحت المركز السياسي والاقتصادي والثقافي للصين من عهد سلالة أسرة تانغ عام 1062م. ومدينة شيان اليوم مشهورة في المقام الأول باكتشاف الجيش الطيني الذي تم العثور عليه في المناطق المجاورة لها.

أقمنا في شيان عدة أيام زرنا خلالها معالم المدينة وأثارها وتجولنا في أنحاء المقاطعة للاطلاع على أنماط الإسكان الشعبي في الصين القديم منه والحديث في القرى. وكانت زيارتنا لموقع الجيش الطيني أهم الزيارات. وهو عبارة عن تماثيل بالحجم الطبيعي لجيش كامل مكون من خمسة آلاف جندي صنعت من الطين للجنود والخيول والعربات والأسلحة لتخليد انتصار ذلك الجيش في إحدى معارك الصين التاريخية. وبجانب هذا الموقع يوجد متحف يضم نماذج من محتويات الموقع مع شرح مسهب لها. وقد اهتم بالشرح التفصيلي بعض المشاركين في الجولة أكثر من بعضهم من أمثالي الذين يهتمهم أخذ الانطباع العام الذي يبقى في الذاكرة دون تدوين ودون الدخول في التفاصيل التي كان المختصون مأخوذون بها. وربما كانت مشاركتهم تهدف إلى الاطلاع عليها ودراساتها.

زرنا معالم كثيرة ومررنا بشوارع خارجية ضيقة طويلة لم يكن الغرض منها مرور العربات والعجلات فقط بل كانت حوافها ساحة لتجفيف المحاصيل ونشر الغسيل وأماكن إقامة للعاملين الموسمين في الزراعة. وهذه أول مرة أرى فيها شارعا تزامم الاستخدامات الأخرى فيه غرضه الرئيسي الذي هو مرور العربات والعجلات. وقد ذكرني ذلك بما نراه على ضفاف بعض الأنهار من استخدام لها إلى جانب جريان المياه حيث ينتشر البشر يغسلون ملابسهم وأوعيتهم ويغتسلون ويتاجرون ويصيدون الأسماك والطيور على الضفاف. ولكن الفرق بالنسبة للأنهار أنه لا يمكن التعدي عادة على مجرى المياه - فمجرى مياه النهر يدافع عن نفسه - بينما يتم التعدي على مجرى الطريق في الصين.

واذكر أننا مررنا أثناء زيارتنا لمدينة شيان أو في طريقنا منها بأشكال من المساكن الشعبية نحتت في الطين على أعماق أدنى من مستوى الأرض يسكنها أناس فقراء توفر لهم المأوى إلى جانب دفء الشتاء وبرودة الجو داخلها أثناء فصل صيف الصين الجاف والحار. وقد قيل لنا إن ماوتسي تونغ ورفاقه مروا من هنا وسكنوا هذه الكهوف أثناء المسيرة الكبرى عندما تراجعوا من جنوب وشرق الصين إلى شمالها الغربي أثناء الثورة الصينية العظيمة.

كما رأينا أعدادا من البشر في الشارع وفي مواقع العمل والمزارع يلبسون زيا موحدًا كنييا مفروضا على أهل الصين. وشاهدنا هؤلاء منهمكين في أعمالهم وتوفير سبل معيشتهم وفق تخطيط الدولة وما تفرره من أجور وعوائد للعمل متساوية في الغالب دون وجود نظام حوافز اقتصادية تذكر. ولذلك يقدم الصينيون من جهدهم المادي ما

يتطلبه تأمين معيشتهم بالضرورة أما جهدهم الفكري والإبداعي فإنهم لا يجدون حافزا لتقديمه إلا بقدر ما تطلبه وتسمح به الدولة نتيجة غياب نظام حر للمشاركة وغياب نظام حوافز اقتصادية يشجع القادرين على التفكير والإبداع على العطاء والتمتع بجزء من ثمرات عطاءهم.

لقد تمكنت الصين الشعبية خلال ثلاث قرن فقط من القضاء على الفقر المدقع والمجاعات التي كانت تصل إلى حد اكل لحوم البشر والفوضى وانعدام الأمن والتدخلات الخارجية بفضل نظام تخطيط مركزي ولكن غياب نظام إيجابي للحوافز المادية لم يسمح مع الأسف للقادرين على الإبداع والمبادرات الاقتصادية أن يبرزوا. فجمدت الحياة في الصين عند انجازات السنوات الأولى من ثورتها ولم تتقدم اقتصاديا إلا بعد أن انفتح نظامها الاقتصادي في العقود الأخيرة الماضية، وأصبح اقتصاد الصين من الاقتصاديات الكبراء في العالم وربما تصبح صاحبة الاقتصاد الأعظم في المستقبل المنظور.

من هنا كانت مقارنتي بين شعب الصين الفقير بشكل عام وشعب الهند التي ينتشر فيها فقر مدقع إلى جانب غنى فاحش في بعض الأحيان. فالحياة الاقتصادية والاجتماعية في الصين وقت زيارتنا في عام 1981 كانت جامدة عند نظام حقق المساواة بين مواطنين فقراء أمنت الدولة لهم جميعا الحد الأدنى من المعيشة والصحة بشكل أفضل مما تحقق لعموم الشعب الهندي على سبيل المثال. ولكن نظامها الجامد سلب قدرات مواطنيها على المبادرة خارج إطار خطط الدولة بما يمكن أن يميز بعضهم عن بعض في الدخل ومستويات المعيشة وحد بذلك من المبادرات الفردية التي يعوزها الحافز المادي وربما المعنوي للمبادرة.

ففي جولتنا لم نر في الصين كلها مظاهر فقر مدقع ولا متسولا ولا طفلا بدون حذاء أو عرضا من أعراض المجاعة مثل ما يراه الزائر عند زيارته للهند. ولكننا لم نر أو نحس في الصين أيضا بوجود مبادرات فردية لتحسين مستويات المعيشة فوق مستوى الفقر نتيجة لغياب نظام حوافز اقتصادية يشجع على المبادرات الفردية كما هو الحال في الهند الذي يوجد فيها نظام اقتصادي أكثر انفتاحا.

لذلك شعرت أن الصين لا يمكن أن تقف حيث وصلت فهي على مفترق طرق والتحدي الكبير لها هو اعتراف الحزب الشيوعي فيها بالطبيعة البشرية لشعبها وتحفيزه القادرين منهم على الإبداع والمبادرة الفردية الاقتصادية والاجتماعية، بما يحقق مصالح الأفراد ويسمح للدولة بالخروج من مأزقها الاقتصادي وتحقيق تنمية مستدامة. وقد كانت هذه الإشكالية وقتها موضوع الصراع بين النخبة الصينية في الحزب الشيوعي أثناء ما عرف بالثورة الثقافية وعصابة الأربعة.

بعد عدة أيام من زيارتنا لمدينة شيان والتجول في مقاطعة شانزي اتجهنا في طريقنا إلى مدينة كاشغر زرنا خلالها مناطق ومدن لا أذكر أسماءها للاطلاع على المزيد من معالم الصين والإسكان الشعبي فيها. وكان تنقلنا في بعض الأحيان يتم بالطائرة وفي اغلب الأحيان بالحافلات. كما كانت تقام كل مساء ولائم العشاء المدهشة والغنية بأنواع الطعام ومظاهر الثقافة الصينية.

وقد أتاحت لي في إحدى الزيارات فرصة شراء سجاد من الصوف منسوج على الطراز التركي ومنه سجادة جيومترية نادرة ما زلت أحتفظ بها. وقد شحنت السجاد معي بالطائرة التي يستقلها فريق الجولة وعندما وصلنا إلى المطار نزل أفراد الجماعة يتقدمهم الأغا خان كريم واخذوا الحافلات ولكنني لم أنزل من الطائرة خوفا على السجاد الذي شحنته معي على الطائرة. وجاء المرافقون يؤكدون لي أن السجاد سوف يصلني في الفندق ولكنني لم أطمئن فقلت

لهم أريد أن أخذ السجاد معي فمن يضمن عودة سجادة مفقودة في الصين؟ وأثناء الأخذ والرد غادر المشاركون المطار في الحافلات وبقيت في انتظار السجاد الذي أنزل بعد حين وجاء المرافقون بسيارة صالون مررت راكبا فيها على الحافلات في دهشة من الزملاء والأغا خان نفسه ووصلت ومعى السجاد إلى الفندق معززا في سيارة خاصة قبلهم بعد أن ظن بعض الزملاء أنني سوف أصادف مشكلة للحاق بهم، وأضيع مرة أخرى كما ضعت في بكين.

ومن بين العادات التي تطورت بين جماعة الرحلة لقاءاتهم في مجموعات بعد العشاء والعودة للفندق من أجل النوم يتسامرون بحكم الاستلطاف الشخصي واللغة المشتركة. وقد كانت لي شلة من بين المشاركين أغلبهم من العرب وفيها بعض الأتراك وبعض الأساتذة الصينيين المقيمين في أميركا. وأذكر أنني في أحد الأمسيات سئلت أحد الأساتذة الصينيين قائلاً: هذه الجولة فتحت عيوننا على الصين ماضيا وحاضرا وعرفتنا على جوانب الحياة والثقافة فيها، ولكن هناك أمرا مهما لم نتعرف عليه وهو حياتهم الجنسية؟ فرد عليّ الزميل الصيني بعد إطفاء قسيمة قائلاً: لا أستطيع أن اشرح لك حياة الصينيين الجنسية ولكن عددهم الذي تجاوز المليار ربما يعطيك مؤشرا على حياتهم الجنسية النشطة! ضحكنا جميعا على إجابة الزميل الكافية وغير الشافية حيث تجنب التفاصيل بفطنة وذكاء وهي ما كنا نود سماعه في أمسيات السمر.

وأذكر أيضا بأن هذا الزميل والأستاذ الصيني في الولايات المتحدة ذو المشاعر الوطنية الصينية قد قال لي مرة ونحن نمر في شارع مزدحم بالناس وعربات نقل البضائع التي يجرها رجال وفي بعض الاحيان نساء من أهل الصين، مشير إلى الجهد المضني الذي يبذله من يجر تلك العربات، قال لي عندما ارى هذا المنظر المتخلف اتذكر حديث سيدات المجتمع في أميركا عندما يرددون على مسامعنا، لا تسعون إلى تغيير حياة أهل الصين ونمط معيشتهم إنها حياة طبيعية تقليدية مدهشة وأتمنى الان أن ارى بعض من تلك السيدات الأمريكيات يجرن هذه العربات ليعرفوا عبي بقاء الصين على حالها واستمرار اهلها يعيشون على نمط الحياة الطبيعية التي تتمنى سيدات المجتمع في الولايات المتحدة استمرارها في الصين دون تغيير.

كانت المحطة الأخيرة في زيارتنا مدينة كاشغر وهي كما تذكر الويكيبيديا العربية تسمى: كاشغر أو قشغر إحدى أشهر مدن [تركستان الشرقية](#) وأهمها. وكانت عاصمة لهذا الإقليم ولها مركز عظيم في التجارة مع [روسيا](#) قبل احتلالها من قبل الصين عام 1949. وقد اجتاحت تركستان الشرقية القوات الصينية سنة 1949م فأطلق عليها الصينيون [شينجيانغ](#) وهي كلمة صينية تعني: المستعمرة الجديدة.

وقد لعبت تركستان الشرقية في الماضي دوراً تاريخياً مهماً في التجارة العالمية. وكان طريق الحرير المشهور يمر بها وهو الطريق الذي كان يربط بين [الصين](#) أبعد بلاد العالم القديم [والدولة البيزنطية](#). وبدأ الإسلام يدخل تركستان الشرقية في عهد [عبد الملك بن مروان](#) سنة 86هـ (705م) ولكن البلاد أصبحت إسلامية حكوماً وشعباً سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة هجرية (964م) بدخول السلطان بغراخان في الإسلام فشمّل الإسلام البلاد كافة.

ومدينة كاشغر ومقاطعة [شينجيانغ](#) كلها ما زالت ذات طابع إسلامي وأغلب سكانها مسلمون يسميهم زملائنا الأتراك في الجولة تركمان وهم ما يعرف بأقلية الأغور المسلمة التي ما زال بعضهم يقاوم الوجود الصيني وما ترتب عليه من تغيير لهويتهم ذات الطابع الإسلامي وحجب للغتهم التي تكتب بالحروف العربية.

ولعل ما أذكره من زيارتنا هذه هو زيارة المسجد الكبير في المدينة واللقاء بإمامه وبعض العاملين فيه. وهو المسجد الوحيد الذي تقام فيه صلاة الجمعة. وكذلك زيارة عدد من المباني التاريخية والقرى المبنية من الطين

(اللبن) ذات الأفران الكبيرة التي تشعل فيها النار للخبز وطهي الأكل وفي الليل تستخدم للنوم فوق الأفران لكون غرفة الفرن هي أدفاً الغرف في بيت الطين في الشتاء القارص.

وأذكر أيضا عند تجولنا في مدينة كاشغر تجمهر الأطفال حولنا في ملابسهم المختلفة عن الصينيين وخاصة غطاء الرأس. كنا كما قيل لنا أول أجناب يزورون المدينة منذ خمسة وعشرين عاما. وكنت بالصدفة خلال تلك الفترة من رحلتنا الطويلة قد اضطررت نتيجة طول السفر أن ألبس ثوبا من الصوف ومعظفا أسود شتويا طويلا وعلى راسي غترة لبستها على هيئة عمامة الأمر الذي جعل الجمهور يعتقد بأنني الأغا خان الذي يزور مدينتهم فتجمعوا حولي يحاولون الحديث إلي ولكنني لا افهم ما يقولون ولا هم يعرفون ما أقول. وجاءتني فكرة قراءة سور قصيرة من القرآن الكريم وقد أدهشني حفظ الجمهور لسور القرآن عن ظهر قلب فحال ما الفظ الجملة الأولى من سورة من السور أجد جميع الحضور صغارا وكبار نساء ورجال يقرؤون بقية السورة بشكل كامل وسليم. وبمرور الوقت وجدت الحشد حولي يزيد وكأنني أقود مسيرة لقراءة القرآن في المستعمرة الجديدة على مرأى ومسمع من السلطات الصينية المحتلة التي تنكر الهوية الإسلامية لسكان المنطقة ولا تدرج دراسة العلوم الإسلامية في مناهج الدراسة.

ومن الطريف أيضا أن بعض النساء اللواتي يضعن غشوة شفافة على وجوههن الجميلة كانوا يرفعون غطاء الوجه لإلقاء نظرة على جمعنا الذي لم يعتادوا على رؤيته في كاشغر وخاصة الرجل الوسيم صاحب العمامة البيضاء الذي حسبه الأغا خان!

في نهاية جولتنا المدهشة في الصين قررت أن أعود إلى قطر من كاشغر مباشرة عن طريق كراشي في باكستان بدل أن أعود إلى الخلف آلاف الكيلومترات إلى بكين للعودة منها. وقد رتبت الجهة المضيفة مشكورة عودتي عن طريق باكستان التي لم أرها من قبل ولا من بعد حتى وقتنا الحاضر. ربما نتيجة الاضطراب وعدم الاستقرار الدائم في باكستان بسبب توابع الانفصال عن الهند والحروب في افغانستان. هذا فضلا أن باكستان بينما يجمع سكانها الدين الاسلامي الحنيف إلا أن شعبها يتكون من أربع قوميات تتكلم كل منهما لغتها الخاصة ولا تجمعهم سوى اللغة الانجليزية كلغة رسمية اعتمدها الدولة الباكستانية عند تأسيسها.

وقد ذكر لي أحد مرافقي لأغان كريم عندما كنا في الصين أن الأغا خان الاسبغ جد أو والد كريم لا أذكر، قد نصح حكومة باكستان عند تأسيسها بأن تعتمد اللغة العربية لغة رسمية بدل الإنجليزية. فاللغة العربية هي لغة القرآن الكريم وسوف يقبلها جميع الباكستانيين ويتقنوها نتيجة لقراءتهم القرآن الكريم، فتصبح اللغة العربية لغة الباكستانيين كلهم دون غضاضة، وبذلك يحدون من استخدام لغاتهم القومية لصالحها ويتم بالتالي التعامل بها على نطاق واسع بما يوحد لغتهم ويحقق المزيد من اندماجهم الوطني، كما يوثق روابطهم مع العالم العربي وربما يصبحون إحدى دوله بعد التعريب. فالعرب على كل حال ليسوا عنصرا أو اثنية وإنما أمة ذات هوية جامعة تجمعهم الثقافة العربية-الاسلامية واللسان العربي الذي جاء به القرآن الكريم، مسلمين ومسيحيين وغيرهم من الاديان.



(1-4-8) أول زيارة لي لسور الصين العظيم "المدهش" خلال الرحلة التي نظمها اللاغا خان للصين.



(2-4-8) الاستخدامات المتعددة للشارع في عرب الصين كما ورد في المذكرات.



(3-4-8) مع أطفال أكلة الأويغور المسلمة في مدينة عشق غرب الصين .



(5-4-4-8) مع اطفال و نساء و رجال اقلية الأويغور المسلمة , عند ترديدهم خلفي سور من القرآن الكريم , حفظوها عن ظهر قلب .



(6-4-8) صورتي مع إمام و مؤذن مسجد مدينة عشفر عام 1980 .



(7-4-8) واجهة مسجد مدينة عشفر عرب الصين 1980 .